المحور الثالث : مسار التاريخ

اذا كان سؤال المعنى أحد أهم الاسئلة التي تطرحها مختلف فلسفات التاريخ ، فإن سؤالا آخرا لا يقل اهمية مطروح في هذا السياق ، ألا وهو سؤال مسار التاريخ. فهل للتاريخ مسار محدد ؟ وما هي طبيعته؟ وما هي قوانينه المسيرة؟

1. مسار التاريخ خطي

يقصد بنموذج التفسير الخطي للتاريخ ، تصور التاريخ على انه خط مستقيم ينطلق من نقطة بداية وصولا الى نقطة نهاية ، أي أن التاريخ يتطور وفق سيرورة تاريخية تحددها قوانين معينة وغاية محددة. فالتاريخ معناه هنا يتحدد من خلال الغاية التي يبلغها. وطبيعة مساره تحدده القوانين التي تحكم سيرورته.

اعتبر فلاسفة عصر الانوار أن التاريخ يسير باتجاه التقدم ، تقدم يحكمه تطور العقل والتفكير الانساني. في حين اعتبر الفكر الديني التاريخ محكوما بعناية إلهية تحدد مساره ، كما ترسم غايته من البداية الى النهاية.

كمثال عن نظريات المسار الخطي في فلسفة، يمكن ذكر ثلاثة نماذج :

نظرية القديس أوغسطين: بالنسبة لاغسطين ومثلما تم استعراضه سابقا في نظريته عن العناية الإلهية، فإن للتاريخ مسار خطيا، ترسم خطواته وغايته الإرادة الإلهية وتسير مراحله العناية الإلهية. وقد حدد أوغسطين فيه لحظة رمزية للبداية واخرى للوصول الى الغاية، التي تتجسد حسبه في ظهور المسيح والمسيحية وتجسيدها في مؤسسة الكنسية، وبالتالي بلوغ مرحلة "مدينة الله" التي تمثل غاية التاريخ وفق ما تصور أوغسطين ذلك.

هيجل: يرى هيجل أن مسار التاريخ هو عبار عن مسار خطي مستقيم يتطور باتجاه الروح المطلق أو العقل ، وهذا التطور محكوم بعملية جدلية ، وصراع الأضداد. ويرى هيجل بأسبقية العقل على المادة ، بمعنى أن تطور العقل والروح هو من يؤدي الى تطور العالم

المادي. والتاريخ مساره هنا هو مسار تطوري باتجاه اكتمال العقل. أساسه جدلية السيد والعبد وتطور مسار التاريخ وفقها نحو بلوغ غايته. حيث يتجسد هذا في التطور اجتماعيا وثقافيا في اتجاه الحرية وسياسيا في اتجاه الدولة أو النظام الليبرالي الديمقراطي.

ماركس: اذا كان كارل ماركس يستلهم من الجدل الهيجلي منهجه ، ويقول هو أيضا بأن مسار التاريخ هو عبارة من مسار خطي مستقيم قوامه التطور، فانه يخالف هيجل في القول بأن المادة سابقة عن العقل. فبالنسبة لماركس فان الجدل الهيجلي كان يسير مقلوبا ، لأن تطور التاريخ هو تطور العالم المادي للانسان ، وهذا التطور المادي محكوم بقانون جدل الأضداد وتطور وسائل الانتاج (نظرية الجدلية المادية). وعلى العكس من هيجل ، فان ماركس يرى بأن تطور العالم المادي بابعاده الاقتصادية والاجتماعية (البنية التحتية) هي من يقود الى تطور العقل وعالم الافكار (البنية الفوقية). اذا فمسار التاريخ عند كارل ماركس هو تطور جدلي مادي باتجاه غاية ، هي النظام الشيوعي (سياسيا) ، وتحرر الانسان من الاغتراب الناتج عن مختلف الأغلال الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي كانت تكبله في مختلف مراحل التاريخ قبل الوصول الى غايته (الشيوعية).

2. مسار التعاقب الدوري

المقصود به أن التاريخ يسير في شكل دورات متتالية ومتشابهة غالبا، بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد بأشكال متقاربة، وتترتب عليها النتائج نفسها. ويمثل هذا الأمر القانون العام لمسار التاريخ ، حيث تتحدد طبيعة المسار الدوري والتعاقبي بطبيعة القوانين المفسرة لمسار التاريخ داخل كل نظرية تفسر مسار التاريخ. كما يرى هذا الاتجاه أيضاً أن التاريخ يسير مسار دائري متواصل يخضع له الإنسان والشعوب والحضارات.

يرى هذا الاتجاه أن كل شيء يبدأ ثم ينتهي ، ينمو ثم يذبل ، يختفي من الوجود ثم يعود مرة أخرى من جديد ، في شكل حلقات متشابهة، كل بداية لابد وان يعقبها نهاية ، وكل نهاية هي بداية لدورة جديدة. مثلما هو الأمر بالنسبة لدورة الحياة عموما.

ومن أهم الفلاسفة الممثلين لنظرية التعاقب الدوري في تفسير التاريخ: ***بن خلدون ، فيكو.***

بن خلدون:

رأى بن خلدون (1332م – 1406 م)ان التاريخ ليست له غاية واضحة، سواء الهية كانت أو وضعية. ومن خلال ملاحظته للاحداث التاريخية وما يظهر فيها من صعود وأفول مستمر للدول والحضارات، توصل الى استنتاج مفاده أن التاريخ يسير في شكل أدوار لا متناهية، تشابه دورة الحياة الذي تحياها الكائنات الحية، من الولادة الى الموت. فما ينطبق على الكائن الحي ينطبق على المجتمع والدولة.

من أهم العوامل التي تتحكم في مسار نهوض وسقوط الدول والحضارات عن بن خلدون هي:

أ- العوامل الجغرافية التي تحدد طبيعة أخلاق الناس وقواهم الجسدية وعلاقتهم بالآخرين، فسكان الصحراء يعيشون حياة صعبة تعلمهم الشدة والقسوة الذي يكتسبونها في صراعهم من

أجل البقاء مع جيرانهم ونظرائهم. أما سكان السواحل فيتفاعلون مع غيرهم من خلال الاستكشاف. وغيرهم

ب- العصبية: تلك الرابطةَ الاجتماعية التي تربط أبناء القبيلة أو أي جماعة أخرى، وتجعلهم يتعاوَنون في الشدة والرخاء. ووفق رؤيته تبدأ ولادة الدولة في البادية، لأن البادية هي الأصل، والبداوة تقوم على العصبية القبلية، والعصبية القبلية تدعو إلى التغلب. وعليه تنشأ الدولة أولاً في القبيلة ذات العصبية القبلية القوية، وتشبه هذه المرحلة مرحلة ولادة الإنسان.

أطوار مراحل التعاقب الدوري (أطوار الدولة)

1. مرحلة التأسيس والبناء: تشبه هذه المرحلة مرحلة ولادة الانسان وتكون فيها العصبية في أقوى درجاتها، وفي هذا الطور يتم بناء الدولة بغزو القبائل البدوية ذات العصبية القوية والتي أكسبت بيئة حياة البادية الصعبة والقاسية أفرادها قوة وجلدا على شؤون الحرب والغزو، للدولة السابقة. وحين تتوفر الشروط الضرورية تسقط الدولة القديمة الهرمة التي اصابها الوهم والانحلال بفعل زوال العصبية وانصراف اهلها عن شؤون حماية دولتهم وانشغالهم بترف الحياة، وتتأسس الدولة الجديدة الفتية على أنقاض الدولة القديمة.

2. مرحلة التوسع: ثم تنتقل الدولة إلى مرحلة التوسع، حيث تقوم القبيلة بغزو المناطق المجاورة لها واحتلال أراضي زراعية غنية، فيتحول البدو الرحل إلى حياة الاستقرار والتحضر والتنعم بمستوى اقتصادي أعلى. لكن العصبية في هذه المرحلة تبدأ تضعف تدريجيا، ويصبح همها الأساسي هو جمع اكبر عدد من الأفراد المؤيدين، وبذلك تتحول سلطة القبيلة إلى سلطة الفرد الواحد. وهذه المرحلة تتماثل مع مرحلة الشباب عند الإنسان.

3. الازدهار ثم تأتي مرحلة ازدهار الدولة، حيث يرتفع مستوى المعيشة وتتوسع المدن وتتقدم التجارة والصناعة ويزدهر العمران. وهي مرحلة تدفع إلى الجاه والسلطة، أين تتراكم الثروة والبذخ والإسراف، ولا يعود للعصبية من وجود، لان الدولة تعتمد في هذه المرحلة على

الجيش والشرطة لفرض الأمن والنظام. وتشبه هذه المرحلة مرحلة الرجولة عند الإنسان. وهي المرحلة التي تصل فيها الدول لقمة عنفوانها.

4. مرحلة الكفاية: أما مرحلة الكفاية والدعة، ففيها يقلد الحكام من سبقهم فلا يبدعون، وتتحول الدولة بالتدريج إلى مرحلة الهرم والشيخوخة، فتبدأ مرحلة التفكك. وعليه تصبح الدولة مريضة ولا أمل في شفائها.

5. مرحلة التفكك والانهيار: تأتي المرحلة الأخيرة المتوجة لنهاية الدولة، حيث تقوم قبيلة بدوية ذات عصبية قبلية قوية بالهجوم والإجهاز على الدولة المفككة وتستلم السلطة بقوة عصبيتها. وهكذا يسير التاريخ توالیا بين صعود الدول وتفككها بشكل دوري يشبه دورة الحياة.

فيكو:

يعتبر جيانباتيستا فيكو Giambattista Vico (1668 – 1744) الفيلسوف الايطالي أهم منظر لفلسفة التاريخ الحديث، فقد رأى فيكو ان التاريخ يتطور الى الأمام، لكن على شكل حلقات لولبية، فالتاريخ ليس تقدما خطيا، بل هو تقدم وفق مسار تعاقب دوري، تنشأ فيه الحضارات وتزدهر ثم تسقط، لكن الأخيرة دائما تبدأ من حيث توقفت الأولى، وهكذا يسير التاريخ تقدما للأمام.

بالنسبة لفيكو فان حلقة التعاقب الدوري تتشكل من ثلاثة مراحل :

– **المرحلة الأولى:** هي المرحلة الدينية أو الإلهية، وفيها ما يزال الانسان يخاف من المجهول، وما تزال المجتمعات الانسانية تسير من قبل نخبة دينية ووفق تفاسير دينية غيبية.

- **المرحلة الثانية: هي مرحلة الأبطال،** وفيها يظهر الأبطال والآباء المؤسسون لكبرى الحضارات والدول، فيتوسعون ويشيدون، ويقودون الانسانية لفتوحات وتغييرات وتطورات. وتتميز هذه المرحلة بأن أهواء الأفراد والشخصيات البطولية هي من تسير التاريخ.

- **المرحلة الثالثة والأخيرة: هي مرحلة الإنسانية،** وفي هذه المرحلة يتطور الفكر الانساني وينضج العقل، حيث تمثل المرحلة النهائية للتطور الحضاري، أين تسود فيها العقلانية والحرية وتنتشر أفكار المساواة والعدالة. وفي هذه المرحلة تتطور الحقوق المدنية والسياسية، وتنتفي الفوارق الطبقية.

لكن الوصول الى المرحلة الثالثة والنهائية لا يضمن الخلاص للإنسانية بحسب فيكو، لانه لا شيئ يضمن حدوث صراعات وحروب داخلية مدمرة داخل تلك الحضارات والدول، وهو ما يعني انهيارها وسقوطها، وعودتها الى المرحلة الأولى!